مجلة الهلال

يوليو 2004

هيكل مؤرخاً - مطلوب مؤسسة تحمي الوثائق التاريخية

بقلم :د. رءوف عباس

لعل أهم ما يميز محمد حسنين هيكل – إلى جانب قدراته المتنوعة – حسه التاريخي، وحرصه على أن يقدم رؤيته لتاريخ الفترة التي عاصرها في الصحافة والسياسة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى حرب أكتوبر 1973، وما ترتب عليها من نزوع نحو تصفية القضية الفلسطينية لصالح المشروع الصهيوني. وجاءت رؤيته للتاريخ (كما عاصره) في سلسلة من الكتب التي نشر معظمها بالإنجليزية، وحرص على أن يصوغ بقلمه طبعتها العربية، مضيفا الكثير من المعلومات والملاحق الوثائقية التى لا تحتملها الطبعة الإنجليزية، والتى تتخذ أساسا لطبعات أخرى تصدر باللغات الأوروبية الأخرى، وبعض اللغات الآسيوية. فهو عند صياغته للطبعة العربية لكتاب نشر أصلا للقارئ الأجنبي، قدم للقارئ العربي خطابا يتناسب مع الرسالة التي يريدها أن تصل إلى أصحاب العلاقة الذين يخصهم ما يكتبه، ويسعى من وراء ذلك إلى تنمية الوعي بالتاريخ عندهم.

والرجل حريص تمام الحرص على أن يؤكد في مقدمات كتبة أنه ليس مؤرخا، ولم يقصد بما كتب أن يقدم بحوثا تاريخية تلتزم الأصول المنهجية التي تقيد عمل المؤرخ، ولكنه يقدم رؤيته الذاتية لأحداث عاصرها، وشهادته لحوادث أتاح له قربه من صانع القرار(جمال عبد الناصر ثم السادات) أن يراها تتشكل أمام ناظريه، وأن يشارك – أحيانا– بنصيب ما في صنعها.

وهذا التحفظ الذي يؤكده هيكل لقرائه في مقدمات كتبة، يعبر عن فهم عميق لصناعة المؤرخ الذي عليه أن يستقى مادته من مختلف المصادر ويقوم بتحليلها واستقرائها، واستخلاص النتائج منها، فهيكل يريد بذلك ألا يلزم نفسه أمام القارئ بما يلتزم به المؤرخ. كما يتم هذا التحفظ عن إدراك عميق – من جانبه – للفارق الكبير بين التاريخ، وتسجيل الشهادة التاريخية التي تعبر عن الرؤية الذاتية لصاحبها، والتي تعطى له الحق في تناول وقائع لا مصدر لها سواه، ولا تلزمه بإقامة الأدلة المادية على دقتها، أو حتى صحتها.

ولا يعنى ذلك أن تلك الشهادات التي تطغي على الكثير من كتابات هيكل تجعل مما يكتبه نوعا من المذكرات الشخصية، فالمذكرات لا تلتزم موضوعا محددا إلا في حالات نادرة مثل مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية مثلا، أو مذكرات الجنرال ديجول عن الحرب ذاتها، أو مذكرات هنرى

كيسنجر عن فترة خدمته في البيت الأبيض. أما كتابات هكيل فتغطي موضوعات شتى تبدو قائمة بذاتها ولكنها ترتبط ارتباطا وثيقا يبعضها البعض وتتصل حلقاتها اتصالا وثيقا، من حرب فلسطين 1948 إلى حرب أكتوبر 1973، ومن سياسات الهيمنة علي الشرق الأوسط كما مارستها القوى لاستعمارية التقليدية إلى مخططات الهيمنة كما وضعتها الولايات المتحدة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتتقاطع مع هذا كله سياسات القوى الكبرى في عصر الحرب الباردة، وحركة التحرر الوطني في العالم العربي وأسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وتتعدد تبعا لذلك الميادين والمسارح التي شهدت تلك الوقائع والأحداث: مصر ، والوطن العربي ، وا إفريقيا، والساحة العالمية.

رؤية الكاتب الذاتية

وكل كتاب من كتب هيكل يدور حول حدث معين محوره تاريخنا القومي المعاصر وا إطاره صراع القوى الإقليمية والدولية، يتضمن رؤية الكاتب الذاتية لذلك الحدث، ويسجل شهادته لما يراه من بعض مكوناته، ويتضمن عرضا مستفيضا لوجهات نظر ومواقف مختلف الأطراف التي شاركت في صنعة، ولا يقتصر على تسجيل المواقف التي شهدها الكاتب أو اطلع على أخبارها.. وهنا يكمن الفرق الكبير بين كتابات هيكل التاريخية والمذكرات الشخصية التي لا يكاد يخرج صاحبها عن إطار الأحداث التي شارك في صنعها، وتغلب عليها الذاتية، والطابع الدفاعي التبريري على نحو لا نجده في كتابات هيكل.

ولا يعني هذا أن هيكل أفرغ كل ما في جعبته في تلك الكتب، ثم "استأذن في الانصراف"، فرغم القيمة الكبيرة لهذه الكتب تظل هناك مساحة عريضة لمذكرات شخصية (لعلها عنده فعلا ويحجم عن نشرها) يقدم فيها – للتاريخ – خلاصة تجربته لشخصية في عالمي الصحافة والسياسة فمثل هذه المذكرات (لو رأت النور) تعين المؤرخ في وصل ما انقطع ، وتجسير الفجوات في رواية تاريخنا المعاصر.

ألوان من الكتابة التاريخية

ورغم أن هيكل تبرأ في مقدمات كتبه – كما أشرنا– من أن يحسب على زمرة المؤرخين، ونفيه أن يكون قصده من رواء ما كتب "كتابة التاريخ"، فما فعله –في حقيقة الأمر– لا يبعد كثيرا عن عمل "المؤرخ"، وما كتبة يمثل لونا على درجة كبيرة من القيمة من ألوان الكتابة التاريخية. قد تكون هناك بعض الهيئات هنا وهناك، قد تتفاوت نظرة المشتغلين بالبحث التاريخي إزاءها، فيرقى بها البعض إلى درجة الأخطاء، وقد يغلو البعض الأخر فينزل بها منزلة الخطايا، ولكن تظل لها قيمتها، وتظل مصدرا لا غنى عنه لكل من يهتم بدراسة تاريخنا المعاصر.

ولا ريب في أن نفي هيكل لتقمص دور المؤرخ يعكس إدراكه الدقيق والعميق لخصائص الكتابة التاريخية التي يجب أن تستمد مادتها من المصادر الأساسية، وهنا نجد هيكل لا يكتفي بما بين يديه من مادة

محلية تمثلت في وثائق رئاسة الجمهورية وأجهزة الأمن القومي التي لا زالت "محرمة" على المشتغلين بالبحث التاريخي، لا يكتفي بذلك، بل يعمل على استخدام وثائق الأطراف الأخرى التي كانت لها علاقة بالحدث، فجمع عددا هائلا من الوثائق البريطانية والأمريكية، سواء ما كان منها رسميا أو خاصا، مستفيدا – بذلك – من نظم الأرشيف الوطني وإتاحة الإطلاع على الوثائق بعد مرور 25 عاما على الأحداث التي تتناولها والقوانين الخاصة بحق الحصول على المعلومات وهى كلها أمور يفتقر إليها أرشيفنا القومي الذي يعاني فقرا شديدا في وثائق العصر الملكي، ويخلو تماما من وثائق الثورة.

وهكذا ، نجد هيكل يمارس مهمة "المؤرخ" من هذه الناحية، فيقارن المادة "الثمينة" المصرية التي بين يديه، بما جاء بالوثائق البريطانية والأمريكية، ليصوغ رواية "تاريخية" يضفى عليها قدرا كبيرا من الحيوية بما يستخدمه من مصادر – أخرى لم تتح لأحد سواه – مثل اللقاءات الشخصية، والأحاديث الشفهية مع صناع القرار، وكذلك الرجوع إلى المذكرات الشخصية والتصريحات الصحفية، فهو يقدم في نهاية المطاف صياغة للواقعة لا تختلف عما يفعله المؤرخ المحترف الذي يملك ناصية منهج البحث التاريخي من حيث المصادر والأدوات، وأسلوب إعادة بناء "الحدث".

فما يفعله "المؤرخ" المحترف لا يختلف عن ذلك كثيرا، إذ يجمع مادته من مصادرها الأساسية، ويقوم بترتيبها وفق نسق منهجي معين يعكس – إلى حد كبير– ثقافته ورؤيته الذاتية، ثم يقدم صورة قلميه للحدث الذي يتصدى لكتابته، تعبر عن تصوره له، استنادا إلى فهمة الخاص لما بين يديه من مادة، فالكتابة التاريخية هنا ليست عملا ماديا ألياً، ولكنها تتضمن الكثير من الإدراك والتمثل، والتعبير عن فكر صاحبها، ولا أظن أن هيكل كان بريئا من ذلك كله، بل أراه لا يختلف عن "المؤرخ" من حيث طريقة العمل والأدوات اللازمة له وإن كان هيكل قد تخلص من الكثير من القيود تحكم حركة المؤرخ. من هذه القيود إبراز الدور الشخصي لهيكل، وطغيانه– أحيانا– على رواية الوقائع، فالمؤرخ يتعامل مع حدث لم يكن طرفا فيه، أما هيكل فوضعه مختلف، ولا نستطيع أن نطالبه بالتخلص من ذاتيته، بل – على العكس– نجد في هذا اللون من الكتابة ما يضئ الكثير من بقع الظل الكثيفة التي تغطى الحدث، فهو لا يروى الأحداث كما يرويها من شهدها على الورق ورآها من الخارج ولكنه يرويها رواية "الشاهد" الذي كان في قلب الحدث.

ومن هذه القيود التي تخلص منها هيكل الاعتماد على مصدر واحد– أحيانا– في واقعة بعينها، وخاصة إذا كان المصدر شفهيا، فلا يملك "المؤرخ" أن يفعل ذلك دون أن يعرض نفسه لسيل جارف من النقد، وغالبا ما يستخدم المؤرخ عبارات تنم عن الحذر الشديد، وتتضمن الكثير من التساؤلات إذا اضطر أن يستخدم رواية لا سند لها إلا مصدر واحد، أما بالنسبة لهيكل فتسجيل الرواية أحادية المصدر يعد "شهادة" لا تخلو من قيمة، عندما تتاح الفرصة لمقارنتها بما قد يتم التوصل إليه من مصادر أخرى.

أستار من الظلال

وأخيرا تخلص هيكل من قيد التخلص من أسلوب الانتقاء عند بناء روايته للحدث، فيغفل أشياء أو يسدل عليها أستارا من الظلال، بينما يلقى أضواء ساطعة على غيرها من الأشياء . فمثل هذا الأسلوب الانتقائي للوقائع أو مكوناتها لا يقبل من المؤرخ، ولكنه من السمات المتواترة في كتابات أصحاب الشهادات التاريخية وكذلك أصحاب المذكرات.

على ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الدوافع التي جعلت هيكل يحرص على أن ينأى بنفسه عن الانتماء إلى "المؤرخين" وينفي عن كتاباته صفة "التأريخ" ولكن ما قدمه من أعمال تعد– في رأيي– مصدرا مهما لا يستطيع أي مؤرخ جاد يعنى بتاريخ مصر المعاصر أن يتجاهله أو يهون من شأنه، فلا مناص للمؤرخ من أن يستخدم هذه الأعمال، ويتعامل معها بهذه الصفة، ويخضعها – كما يشاء– للنقد والتحليل المنهجي، تماما كما لا يمكنه إهمال أعمال عبد الرحمن الرافعي التي تتناول تاريخنا القومي في النصف الأول من القرن العشرين، مع اختلاف المستوى والقيمة بين عمل الرجلين، فلم يتح لعبد الرحمن الرافعي الفرص التي أتيحت لهيكل، واقتصر عمله على رصد الوقائع اعتمادا على المادة المحلية وحدها في أغلب الأحوال، ولم تكن له معرفة هيكل بالسياسة الإقليمية والدولية، وكان – في أغلب الأحوال– "مراقبا" خارجيا، وليس مشاركا في صنع الحدث.

ورغم أن عبد الرحمن الرافعي لم يسلم من النقد المر الذي وجهه إليه "المؤرخون" إلا أنهم– بلا استثناء– لم يسقطوا أعماله من اعتبارهم ، بل لا يستطيع المنصف منهم أن ينقص من قيمتها رغم ما قد يكون له عليها من مأخذ.

جهد يفوق طاقة المؤرخ

وكتابات هيكل التاريخية ملأت – دون شك– فراغا كبيرا في المكتبة العربية، وتمثل جهدا يفوق طاقة وجهد المؤرخ الفرد، ولابد أن يكون الرجل قد استعان بعدد من المعاونين في جمع الوثائق الأجنبية وترتيبها، وتجهيزها للعمل عليها، وكذلك ترتيب المادة الوثائقية المصرية، أما الكتابات بهذا الأسلوب المميز فهى من عمله وحده، ويدخل في ذلك اختيار المادة وتنظيم الاستفادة منها.

وتمكن قيمة هيكل في الوثائق المحلية التي أتيح له الحصول على نسخ مصورة منها، وكذلك في الشهادات التي أوردها للأحداث التي شارك في صنعها أو كان شاهدا لها أو مراقبا عن قرب، هذا فضلا عن اللقاءات والأحاديث الشفوية التي كان طرفا أساسيا فيها وخاصة ما يرويه عن عبد الناصر والسادات وبعض الشخصيات الأمريكية والأوربية، فهذه كلها مادة مهمة يستطيع "المؤرخ" أن يستخرج منها الكثير والكثير من الدلالات والاستنتاجات التي قد تختلف عما توصل إلية صاحبها من نتائج.

وا ٍذا كان المقام يضيق هنا عن تحليل مضمون كتابات هيكل التاريخية، فلا مناص من أن نثير – بهذه المناسبة– قضية مهمة سبق كما أن تناولناها في مناسبات أخرى في مقالات وأحاديث صحفية، كما تناولناها في لقاء مع هيكل جاء بدعوة كريمة منه في صيف 2001 ، بعدما تم افتتاح مقر الجمعية المصرية الدراسات التاريخية الذي شيده الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى من ماله الخاص، ووهبه للجمعية، عندئذ طلب الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يلتقي ببعض أعضاء مجلس الإدارة، ورتب اللقاء الصديق الكاتب الصحفي أحمد الجمال عضو الجمعية.

وفي ذلك اللقاء أثرنا مع هيكل موضوع الوثائق التاريخية التي يحتفظ بنسخ منها لديه، وهي – دون شك– تفوق من حيث الكم ما استخدمه في كتبه، وطلبنا منه أن يودع هذه النسخ المصورة دار الوثائق التاريخية القومية، وقلنا له: إن ذلك العمل يوفر خدمة جليلة لتاريخ هذا الوطن تتوج ما بذله من جهد في تسجيل هذا التاريخ في كتبه.

حديث حول الوثائق

ودار بيننا وبينه حديث شيق حول أهمية تاريخ مصر المعاصر وخاصة فترة الأربعينات والخمسينات وكذلك تاريخ المنطقة وفهمنا أنه لا يريد التحدث "بصراحة" حول موضوع الوثائق، فحاولنا توجيه الحديث إليها، وكانت حجته أن ما لديه ليس وثائق رسمية بل صور منها، وأنه يخشى ان يكون مصيرها التلف والإهمال والضياع إذا سلمها لهيئة حكومية، ولمح إلى إمكانية إيداعها هيئة خاصة إذا ضمن أن تكون موضع الرعاية.

فأبدينا استعدادنا أن نخصص لها المكان اللائق بها في مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وانتهي اللقاء دون أن نحصل منه على موقف محدد من الاقتراح، وحاولنا التواصل معه، وقدمنا له دعوة لزيارة الجمعيةوا ٍلقاء محاضرة بها، وتركنا له تحديد الموعد الذي يلائمة، ولازلنا عند موقفنا بعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء.

***

إن الجهد الجليل المهم الذي بذله هيكل في تسجيل رؤيته وشهادته لتاريخنا المعاصر،لا يكتمل إلا بإتاحة ما لدية من وثائق للباحثين عن طريق إيداعها إحدى الهيئات العلمية التي يطمئن إليها، فقد حصلت دار الوثائق التاريخية القومية على مجموعة كبيرة من الوثائق الأمريكيةوالبر يطانية، ومازالت الوثائق المصرية لتلك الفترة قابعة عند الأستاذ هيكل يتطلع الباحثون إلى اليوم الذي يتاح لهم إستخدامها، وستظل يد الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ممدو ده إذا شاء الأستاذ اختيارها مقرا لمجموعته الوثائقية.